العرب
الأربعاء 2020/04/29
السنة 42 العدد 11692

البيض لم يأتوا إلى أفريقيا لنشر الحرية

«قلب في الظلمات» رواية تفضح جرائم الرجل الأبيض

البيض أجرموا في حق أفريقيا

كانت الإمبراطوريات الاستعمارية تزعم أن الهدف من هيمنتها على الدول الضعيفة هو نشر القيم الحضارية والإنسانية الرفيعة. غير أن التاريخ أثبت بالأدلة القاطعة أن تلك الإمبراطوريات استغلت قوتها العسكرية لكي تنهب ثروات العديد من البلدان، مسلطة على شعوبها مظالم ومجازر رهيبة. وهذا ما فضحته العديد من الروايات الشهيرة مثل رواية "قلب في الظلمات" للبريطاني جوزيف كونراد.

حسونة المصباحي
كاتب تونسي

خلال الأيام الماضية، أعدت قراءة رائعة جوزيف كونراد "قلب في الظلمات" (في الترجمة العربية: قلب في الظلام، لكني أفضل الجمع على المفرد) في ترجمتها الفرنسية. وهي الرواية التي استوحى منها المخرج الأميركي الشهير فراشيسكو كابولا فيلمه الذي يحمل عنوان "القيامة الآن".

وعندما أنهيت هذه الرواية، شعرت كما لو أنني لم أقرأها من قبل. وهذا ما تتميز به الأعمال الإبداعية العظيمة حيث إنك تشعر في كل مرة تعيد قراءتها بأنك تحتاج إلى قراءتها مرة أخرى لتسبر أغوارها، وتستجلي خفاياها.

جرائم البيض

كان كونراد قد كتب ذات مرة يقول "إن طبيعة معرفتي، والإيحاءات والإشارات التي تتضمنها أعمالي، مُتّصلة مباشرة بظروف حياتي العملية، أو بالأحرى بعلاقات بسيطة، وعابرة للغاية، أكثر مما هي متصلة بتجربة معيشة". والواضح أن رواية "قلب في الظلمات" تعكس هذه القولة. ويقول كتّاب سيرة كونراد إنه كان وهو طفل يطيل النظر في خارطة القارة الإفريقية. ثم ذات مرة وضع إصبعه على نهر الكونغو الذي بدا شبيها بثعبان هائل الحجم، وقال وكأنه يتحدث إلى نفسه "عندما أكبر سوف أكون هناك".

جوزيف كونراد انتصر للأفارقة المضطهدين من البيض الذين نهبوا ثرواتهم وارتكبوا في حقهم أبشع الجرائم

وفي عام 1890 وكان آنذاك في الثالثة والثلاثين من عمره، أجرى كونراد اتصالات في بروكسيل، وبمساعدة من سيدة تدعى مارغريت بارادوفسكا، حصل على عقد عمل يمكنه من السفر إلى الكونغو التي كانت تحت هيمنة مملكة بلجيكا. وفي شهر ماي من العام المذكور، انطلق من مدينة بوردو الفرنسية في رحلة استمرت شهرا كاملا، خلالها عاين القسوة التي كان يسلطها الاستعماريون الفرنسيون على سكان البلدان الأفريقية الواقعة تحت هيمنتهم.

وعند وصوله إلى الكونغو، أصيب منذ الأيام الأولى بصدمة موجعة. فقد وجد نفسه في بلاد موحشة، فيها يموت الناس بسبب الجوع، أو بسبب الأوبئة، أو بسبب المظالم الفظيعة المسلطة عليهم من قبل المستعمرين البيض الذين كانوا يعاملونهم معاملة الدواب. وفي رسالة بعث بها إلى مارغريت بارادوفسكا، كتب كونراد يقول "كل شيء هنا مُنَفّر وكريه بالنسبة إليّ، الناس كما الأشياء، ولكن الناس بالخصوص. وكل هؤلاء أصحاب الدكاكين من الأفارقة وتجار العاج لهم غرائز خسيسة. أتأسف لأنني جئت إلى هنا. بل إنني أتأسف على ذلك بكل مرارة".

وشيئا فشيئا بدأ كونراد يكتشف مشاهد فظيعة من جرائم الاستعماريين البلجيكيين في الكونغو. ويعتقد الكثيرون من المؤرخين أن بلجيكا هي أول بلد اقترف جرائم التصفية العرقيّة في القرن العشرين. ويقول المؤرخ الهولندي جان سانغرس صاحب كتاب "الكونغو، الأسطورة والواقع" إن الملك البلجيكيّ ليوبولد الثاني كان يعتبر الكونغو "ملكيّة خاصّة" به وحده. لذا استعمل كلّ ثرواته التي حصل عليها من هناك في بناء القصور الفخمة، والحمّامات المعدنيّة في مدينة أوستوند شمال البلاد. وقد كلّف القادة العسكريين والجنود المرتزقة الذين جمعهم من مختلف أنحاء أوروبا بإجبار المزارعين الكونغوليين على العمل دون أجر من أجل المملكة البلجيكيّة، فإذا ما رفضوا ذلك قطعت أيديهم وأرجلهم وحملت في صناديق إلى بروكسيل لكي يتأكّد الملك ليوبولد الثاني أن كلّ شيء على ما يرام في المستعمرة البعيدة التي لم يكن يعرف عنها وعن سكّانها شيئا.

في النهاية كانت نتيجة هذه السياسة العنصرية والإجراميّة ملايين من القتلى والجرحى والمشوّهين من أبناء الشعب الكونغولي. وخلال الحرب الكونيّة الثانية استفادت بلجيكا من عائدات مناجم النّحاس والأورانيوم بعد أن أجبرت الكونغوليين على العمل من دون أجر، وفي ظروف قاسية ولا إنسانيّة، الشيء الذي أتاح لها إنقاذ اقتصادها من الانهيار، وجنّب أبناءها غوائل الفقر والجوع.

أما الجريمة الأخرى التي اقترفتها بلجيكا في حقّ الكونغو وشعبها فتتمثّل في اغتيال الزعيم الوطني باتريس لومومبا الذي كان يحظى بشعبية كبيرة. فعند انتخابه أول رئيس للحكومة الكونغولية عام 1958 انزعجت السلطات البلجيكية انزعاجا شديدا من ذلك، وشرعت تعدّ المؤامرات الخسيسة والخبيثة بهدف التخلّص منه. وخلال احتفالات الاستقلال التي انتظمت في الثلاثين من شهر يوليو 1960، خاطب باتريس لومومبا الملك بودوان قائلا إن القانون البلجيكي كان يعامل البيض والسّود بكثير من الاختلاف.

وقد ضاعف ذلك الخطاب الذي تضمّن انتقادات لاذعة للاستعمار البلجيكي من ضغينة سلطات بروكسيل، معتبرة إيّاه "إهانة لحفيد ليوبولد الثاني". وفي الحين قرّرت القضاء على صاحبه في أقرب فرصة ممكنة.

رحلة في الجحيم

الشخصية الرئيسية في رواية "قلب في الظلمات" يدعى مارلو. والواضح أنه يجسد شخصية كونراد نفسه. ومارلو يركب الباخرة ليقطع مسافة طويلة عبر النهر بحثا عن كورتز، الرجل الأبيض الذي يعذب ويقتل المئات من أبناء الكونغو من أجل الحصول على العاج.

> رواية «قلب في الظلمات» كتبها جوزيف كونراد بعد رحلته إلى الكونغو وما عاينه من جرائم الاستعمار فيها

ويقول مارلو إنه -أي كورتز- صنيعة أوروبا بأسرها إذ إن والدته كانت نصف بريطانية، أما والده فقد كان نصف فرنسي. وكان يعامل السكان المحليين معاملة العبيد الخاضعين له خضوعا تاما بحيث لا يجرؤ أي أحد منهم أن يتفوه بكلمة واحدة، أو أن يأتي بحركة تشي بالغضب أو الرفض أو التمرد. فإن فعل ذلك ضرب حتى الموت، ثم يعلق رأسه على أغصان الأشجار.

ورغم أنه يفاخر بأنه يجسّد صورة الرجل المتحضر، والمتمدن القادم من بلاد تعيش في ظل الديمقراطية، واحترام الحريات العامة والخاصة، فإن كورتز لا يمتنع عن ارتكاب أفظع المجازر، ناشرا الرعب في كل مكان يحل فيه. وأثناء رحلته التي تشبه رحلة في جحيم أرضيّ، يشاهد مارلو، رؤوسا كثيرة معلقة على الأشجار. وكان كورتز يستعذب رؤيتها من خلال نافذة غرفته عندما يستيقظ كل صباح.

وواصفا رحلته، يقول مارلو "السفر في النهر كان شبيها برحلة إلى الوراء باتجاه بدايات العالم عندما كانت الأعشاب والنباتات تغطي الأرض بشكل جنوني، وكانت الأشجار ملكات. مجرى نضبت مياهه. وصمت رهيب، وغابة كثيفة يعجز النظر عن النفاذ إليها. وكان الهواء حارا، كثيفا، فاترا. ولم يكن هناك أيّ فرح في ضوء الشمس".

ومتحدثا عن أهالي البلاد الذين شاهدهم خلال رحلته، يقول مارلو "كانوا يموتون ببطء، وكان ذلك واضحا بما فيه الكفاية. لم يكونوا أعداء، لكنهم مجرمون، والآن ليس هناك ما هو أرضي، لم يكن هناك سوى أشباح سوداء تعاني من الجوع ومن المرض، ملقاة بأشكال فوضوية في الظل الأخضر الغامق"...

«على قرن الكركدن» رواية مجانية على الإنترنت

ميلانو (إيطاليا) - في مبادرة قد تكون الأولى من نوعها في عالم النشر، يصدر عن "منشورات المتوسط" بالتعاون مع مواقع إعلامية النسخة العربية من رواية "على قرن الكركدن"، للكاتبة الإيطالية فرانشيسكا بيليتو في صيغة إلكترونية قبل صدورها ورقيا. وسيتاح الكتاب للقراء على الإنترنت بشكل مجاني بالكامل، لمدة شهر اعتبارا من الجمعة 1 مايو 2020 عيد العمال العالمي.

هذه المبادرة، وكما يصرح مدير النشر في منشورات المتوسط الشاعر الجزائري خالد بن صالح "تأتي كنوع من كسر الحصار المفروض علينا، لنقول أن لا شيء يوقفنا، وسنجد دائما سبلنا للاستمرار فيما نحب عمله، وهذا المشروع هو دليل أن تعاونا بسيطا ومدروسا بين مجموعة من المؤسسات الخاصة التي تتقاطع في هدفها الثقافي، ينتج عملا خلاقا في إطار مهمتنا التي اتخذناها على عاتقنا في إنتاج المعرفة".

فيما ذهب المحرر الثقافي المساهم في هذا المشروع الشاعر والروائي الفلسطيني رائد وحش إلى القول إنه "لطالما تعاونت الصحف ودور النشر لأجل نشر الكتب بشكل شعبي، ولطالما كانت هذه المبادرات ذات تأثير مهم في وقتها. الآن، في زمن الصحافة الإلكترونية، لا تزال حاجتنا إلى الكتب والقراءة هي نفسها، إلا أن بين أيدينا وسائل تكنولوجية تسهل المسألة لا بد من استغلالها، وفي الوقت ذاته هي دعوة من ألترا صوت لربط الصحافة اليومية بعملية الإنتاج الثقافي والمشاركة الحيوية فيه".

أما إيمان حيلوز، المديرة التنفيذية لمنصة أبجد المشاركة في نشر الكتاب، فقالت "إن هذا المشروع المشترك في ظل الحجر المنزلي، سيمنح الفرصة للقراء لكي يكتشفوا كتابا جديدا، عميق المحتوى، يمنحهم مساحة للتفكير وتجديد علاقتهم بالعالم، خصوصا وأن الكتاب سيكون في متناول الجميع، لتصفحه بطريقة سهلة ومريحة لمدة شهر كامل، وفق خصائص الكتاب الإلكتروني العالمية، من البحث بين السطور، إلى تقليب الصفحات وغيرها من التقنيات المريحة للقراءة".

تبدأ هذه المبادرة برواية "على قرن الكركدن"، للكاتبة الإيطالية فرانشيسكا بيليتو المعروفة باهتمامها بقضايا العالم العربي وثقافات بلدان البحر الأبيض المتوسط. ترجمت الرواية عن الإيطالية المترجمة سوسن بوعائشة، وراجع الترجمة ودققها المترجم التونسي أحمد الصمعي. تعيدنا رواية فرانشيسكا بيليتو "على قرن الكركدن" إلى تونس؛ أيام الثورة، ساعات قليلة بعد طرد بن علي، وموت مريم. وفي هذه الأجواء المضطربة، تصل ماري من إيطاليا، تخرج من المطار، مصدومة ومشوشة، ولا شيء يشغلها إلا الوصول إلى مدينة القيروان، لحضور جنازة صديقتها. كان هادي، أول سائق عرض عليها خدمته، ليصبح دليلها على خارطة بلد يعيش على وقع الاضطرابات السياسية التي رافقت التحرر من الدكتاتورية، وما صاحبها من آمال واحتجاجات، واحتفالات ومشادات، تنعكس، في صور متسارعة خلال الرحلة، على زجاج سيارة أجرة بالية.

تروي بيليتو في روايتها، ذكريات ماري مع مريم، بأسلوب سينمائي تشويقي، كأنها تمرر أمام أعيننا شريط فيلم على الطريق؛ بين الحياة في روما والعطلات الصيفية في القيروان، تستحضرها بكل تفاصيلها، وكيف تتحول الصداقة بين ماري عالمة الأنثروبولوجيا الإيطالية ومريم التونسية المهاجرة إلى إيطاليا بدافع الحب والهروب من زوج أمها المستبد؛ إلى بحث عميق عن الذات، تتكشف سبله الخفية بشكل مدهش، عبر قصة امرأتين تجدان الطريق إلى ثورتهما الخاصة.

> هذا المشروع المشترك في ظل الحجر المنزلي، سيمنح الفرصة للقراء لكي يكتشفوا كتابا جديدا عميق المحتوى

أخيرا، أكد مدير منشورات المتوسط خالد سليمان الناصري "أن إطلاق رواية 'على قرن الكركدن' سيتزامن مع عيدنا جميعا، عيد العمال العالمي، وقال على سبيل الدعابة: يا عمال العالم اقرأوا"، مضيفا "إن هذه المبادرة لن تكون الأولى وستتبعها مبادرات مماثلة في قادم الأيام، مع شركائنا وشركاء جدد أيضا".

قصة «ابن ماجد» أشهر الملاحين العرب

الشارقة - ترافق دار "كلمات" الإماراتية المتخصّصة في نشر كتب الأطفال واليافعين باللغة العربية والتابعة لـ"مجموعة كلمات"، قراءها في منازلهم، وتطل عليهم بالعديد من الإصدارات المتنوعة، وتتيح إمكانية الحصول عليها عبر طلبها من موقعها الإلكتروني، حيث تتوفر خدمة التوصيل مجانا داخل دولة الإمارات.

تعرض "دار كلمات" اليوم واحدة من أكثر إصدارتها مبيعاً، تدعو فيها الصغار لقضاء وقت ممتع مع حكاية الملاح والجغرافي العربي الشهير "ابن ماجد" في حكاية تحمل الاسم ذاته من تأليف الكاتبة اللبنانية فاطمة شرف الدين، ورسوم الفنان حسن أميكان.

> القصة تنقل الطفل القارئ بأسلوب سردي مشوق إلى عالم البحار والمغامرات المليئة بالمفاجآت والاكتشافات

تتناول القصة، الموجهة للأطفال من عمر 6 إلى 9 سنوات، نشأة الملاح ابن ماجد، ومرحلة تعلمه اللغات والعلوم البحرية والجغرافيا والفلك، وعلوم الملاحة، والأدوات الملاحية التي اخترعها وطورها خلال رحلاته مثل البوصلة والإسطرلاب والحقة، ومؤلفاته في أصول البحر وقواعده ومحاولاته الشعرية، إضافة إلى رسم الخرائط.

وتتزين صفحات قصة "ابن ماجد" برسوم معبرة لشخصية ابن ماجد بالأزياء العربية القديمة، وتظهر بصورته محاطاً السفن الخشبية الكبيرة التي كان يُبحر فيها، بألوان زاهية ومتنوعة، طغى عليها اللون الأزرق، في إشارة إلى رحلاته في المحيطات والبحار. وتنقل القصة الطفل القارئ بأسلوب سردي بسيط ومشوق، إلى عالم البحار والمغامرات المليئة بالمفاجآت والاكتشافات حيث تثري خيال الطفل وتقوي ذاكرته ومعرفته بالشخصيات العربية الملهمة التي كان لها أثر مهم ودور كبير في نشأة الحضارة الإسلامية وتطورها.

وتأتي قصة "ابن ماجد" ضمن سلسلة "هل تعرف من أنا" التي تصدرها دار كلمات لتسلط من خلالها الضوء على مجموعة من العلماء والمفكرين والشخصيات التاريخية العربية التي تركت بصمتها على مر العصور، وتضم هذه السلسلة أيضا كل من "ابن سينا" و"ابن خلدون" و"ابن بطوطة" و"ابن رشد".

والجدير بالذكر أن إصدارات "كلمات" وصلت من كتب الأطفال الثقافية والترفيهية القيمة للأطفال واليافعين (من عمر 12–0 سنة) إلى ما يزيد عن 250 كتابا ترجم الكثير منها إلى لغات مختلفة وفاز العديد منها بجوائز محلية وعالمية.